تمرن لهم بحرية الا على عهد الدولة السادسة والعشرين وما كانوا أمة حربية قط . ولقد قاد ملوكهم الجند في حروبهم واتخذوا القتال ديدنهم فبعثوا البعوث الى زنوج الحبش تارة والى القبائل السورية أخرى فاذا غلبوا صوروا صورة النصرة على جدران قصورهم ومتى قفلوا راجعين من غزواتهم يأتون بالاسارى فيستخدمونهم في بناء المعاهد على انهم ما احرزوا قط نصراً مؤزراً ولا فتحوا فتحاً مبيناً فدهم الاغيار مصر اكثر مما حمل المصريون على الاغيار

حسنات القرن الماضي

عن الافرنجية

تقدم في البحث السالف ما اصاب المجتمع الغربي من السيئات والمضنيات والآن نلم بما أتاه القرن التاسع عشر من الحسنات والمقومات فنقول : ان الثورة السياسية الاجتماعية العظيمة التي حدثت في القرن الماضي في أوربا قد أثرت في تحسين القوى العقلية في الاجيال الحديثة كما أحدثت الاكتشافات العلمية وانتشار التعليم بين السواد الأعظم من الناس نشوءاً وارتقاء في المجتمع الحديث وفي الافكار التي يجري عليها فتحكم فيه حكمها وها نحن نعطي البيان حقه من شرح النتائج الظاهرة من التربية الحديثة طبيعية كانت أو عقلية أو أدبية ونذكر ما أثرت في الشبان من تغيير طرق معيشتهم وأعمالهم وأفكارهم حتى صار من همّ بعضهم ان يسيروا بالانسانية نحو الكمال وان كان ذلك الآن من المحال

وأعظم هذه الحادثات وأولها هي الثورة الفرنسوية اذ قوضت المبادئ التي كانت أساساً للحضارة الأوربية مدة قرون عديدة وبهذا كانت فرنسا مهد الاصلاح الاجتماعي العظيم والارض التي نمت فيها وربت تلك الافكار

الأساسية التي استولت على المجتمع الحديث كمساواة الجميع أمام القانون واشتراكهم في الحقوق والواجبات المدنية والسياسية وحرية العمل والصناعة وحرية الدين والفكر

ولا مراء أن قد قل في العصور الغابرة عصر أثر في حياة الامم الاوربية تأثيره في هذا القرن وماداناه قرن سابق ولا لاحق في أعماله . تلك الاعمال التي لم يقف نفعها عند حد الانقلابات السياسية بل تغيرت بها غايات الاعمال في المجتمع الانساني وأماني الناس وأميالهم فدخلت الانسانية كما قال بعضهم في طور جديد من الحياة مطالبة الانسان بوضع أساس للحقوق كافة وللقوانين عامة على ان تكون روحاً لحق الحرية . نعم تغيرت المناحي والافكار والعادات والنظامات الاجتماعية فتمثل للمرء ميدان الآمال الغريزية بعيد المضطرب ممتد الرواق وأيقن ان ساحة الجهاد شرع لكل العاملين فلم يفكر في غير تحسين حالته الاجتماعية بالعمل وتثقيف العقل . فانصرف بعضهم الى العلوم والفنون وبعضهم الى التجارة والصناعة وبعضهم الى زراعة الارض والاغتناء من غلاتها . وكل فرد من أعضاء هذا المجتمع يجتهد جهد طاقته في الاخذ بيد الترقي وانعاشه من سقطته

ولم يقنع الانسان بان يكون اداة حيوانية في تعاطي الاعمال بل بحث على العكس في ايجاد أدوات وآلات تقوم مقام الاذرع التي لم تكف للقيام بما هدته اليه فكرته الباحثة . فانقسمت العناصر القائمة بالجهاد الانساني وتنوعت بتعدد التنظيمات الطبيعية والعقلية المنبعثة من كل امرئ على حدته جرياً على ناموس تقسيم الاعمال . وما فتئت انواع المعارف الانسانية المتنوعة تكمل وتكبر والنجح مؤاتيها الى ان تبلغ مكانة سامية لم تعرف في القرون

الماضية . فالعمل وحب العمل هما من العلامات التي ينعت بها عصرنا هذا ولا اعني بالعمل العمل البهيمي المعهود في الازمان الماضية بل أريد العمل المنتج المتأتي عن ذكاء وفهم . ولقد كانت الحاجة ماسة قديماً للاذرع وقوة الحيوانات لطحن القمح وادارة المطاحن اما اليوم فقد توصل الفكر البشري الى استبدال البخار والكهربائية بتلك العوامل بمعنى ان الفكر في قرننا الذي يحق له ان يدعى قرن الماديات هو العمل والعمل هو الفكر . فماديات اليوم تختلف عن ماديات أمس من حيث ان هذه كانت تعد الفكر مادياً وتلك تحسن المادة بدرس خصائصها الطبيعية والكيماوية للانتفاع بها في الارباح والمتاجرات الصناعية

وبفضل ارتقاء الاشغال العقلية رق الشعور وسما الاحساس فصارت للمرء قيمة وللعالم مقام وانتهت الحال بتحرير الرقيق والاماء . وبارتقاء العلوم واستخدامها في الحرف والصناعات بلغ الانسان بايجاد موارد الانبات وتوفيرها والاستكثار من الثروة العامة مبالغها . وراح العامل وعدته المعارف العلمية في صناعته يعنى بالتعلم والتفكر والبحث ويهتم بارتقاء الصناعات والعلوم على حين كانت اداة ساذجة تابعة للآلات الصماء . وليس كل ما تم في هذا القرن من صالح الاعمال الا نتيجة من نتائج العلم العملي وأثر من آثاره . وحقاً ان ارتقاء العلوم الطبيعية والكيماوية في هذه الخمسين سنة الاخيرة قد أثرت تأثيراً بيناً في الصناعات وفي الطبقة العاملة من الناس بل في التجارة وعملائها بحيث امتنع على المرء ان يعيش عيشاً سا كناً خالياً من الهموم وإشغال الافكار على نسبة نجاح مشروعاته وأعماله . واذا كانت قيمة الغلات الارضية والصناعية عرضة أبداً للتقلبات على اختلاف أنواعها لتقلب كيفيات الاستعمال وتبدله

صار القائمون على الصناعات في قلق أبداً مضطرين الى ايجاد طرق بديعة أخرى لنيل الارباح التي تطمح اليها نفوسهم

الا وان اكتشاف البخار والكهربائية واستخدامها في التجارة والصناعة بتقريب الابعاد والمسافات وقد دفع بظواهر الحركة الاجتماعية الى الرقي فلم تتزايد طرق المواصلات فقط بل اختصرت بحيث استحالت الساعات دقائق والايام ساعات والشهور أياماً والسنون شهوراً . فقوى الحركة الحالية التي لا تنضب قد سهلت الصلات بقصر المسافات في لمحة بين أقطار المسكونة التي تتبادل للحال نتائج نجاحها وأفكارها وأعمالها . ثم رأى المرء نفسه في حاجة تضطره الى ان يقوم على الصناعات والعلوم بدون وناء وان يستخدم قواه العقلية باسرها ويوجهها نحو خصومه في البلاد الاخرى اذ ليست المسابقة مقصورة على شعب واحد ولا على بلد واحد بل قد امتدت شرارتها في اطراف الارض واتصلت بأمم الكرة الارضية كلها وخصوصاً بين من توفرت فيهم شروط الانتاج والعمل . ومع هذا فلم يقف عقل الانسان عند حد اختراع السلك البرقي والآلات البخارية بل قد تعداها الى خرق الانفاق في الجبال العظيمة وحفر الترع في القفار والاصقاع المستنقعة حباً تسهيل الصلات بين انحاء الارض المختلفة وتنشيطاً لمقايضة غلات الارض وثمرات العمل والذكاء

ومن نتائج المواصلات السريعة العديدة بين الارجاء الكثيرة والبلاد الشاسعة والاجناس المختلفة الطباع واللغات انتشار أفكار التمدن الحديث بين جمهور الناس والتسامح مع الآراء المتضادة . ثم ان الحاجة مست في تعليم

الطبقة النازلة من الناس وتلقينهم احترام الانسانية والبلوغ بهم الى تكريم الوطني بتعليمهم حقوقهم وواجباتهم

ومما تم في هذا القرن الجليل اعطاء المرأة حقوقها وتحريرها من رق العبودية التي رسفت في قيودها من قبل قروناً متطاولة فقد أنالها حقوقاً ساوت بها حقوق الرجل فصارت بذلك جديرة ان تربي أولادها وتلقنهم حب العمل وتطبعهم على بغض الرذيلة لاصلاح ما اختل من أحوال المجتمع البشري . ولم تكن حال النسوة في عصر من الاعصار مشابهة لحالهن اليوم فقد نلن بفضل القوانين المسنونة حظاً من العلم والادب تشتد به سواعدهن في التغلب على مشاق الحياة . وقد عنيت معظم حكومات أوربا بانشاء مدارس عالية وابتدائية لتعليم الفتيات العلم وتلقينهن أساليب العمل واذا صحت عزائم الافراد على اتباع سيرة الحكومات ومضافرتها في هذا السبيل من إنشاء المدارس للبنات ترتقي آداب المجتمع الانساني ويحيى نظام العالم حياة طيبة رغيدة

وقصارى القول فقد علمت مما مر بك بعض حسنات هذا القرن ولا يفوتك علم ما يناقضها . ومن نظر بعين البصيرة يتضح له كل الوضوح ان القرن التاسع عشر أفاد المجموع اكثر من الآحاد واذا نظرت كل شئ في الوجود نظر المستبصر تراه ذا وجهين وجه النور ووجه الظل وأحدهما نتيجة لازمة للثاني . فانك ترى الظافر في الحروب العظمى الوطنية يكره النصر فيحتفل بما يؤيد تاريخه ويترنم بالاناشيد الوطنية ليخلد آثار سلاحه في رقاب الاعداء ويسجل عظمة أمته ناسياً ما اهرقه من الدماء والوفاً من النفوس التي قضت نحبها في ساحة الوغى والوفاً من العجزة من جراح أو أمراض اصابتهم في الحرب وكثرة الايامى واليتامى ممن قضت عليهم أعمال القوة الوحشية

ان يرفعوا باستلال أرواح ذويهم مجد أمته وعظمتها

وبعد فلا يخفى ان كثرة انتشار الذكاء الانساني في القرن التاسع عشر وازدياد موارد الغلات زيادة لا تنقطع بما تهيأ لها من وسائط العمل الطبيعي والعقلي وجمع الثروات العظيمة وسمو منزلة الذكاء الادبية قد ولدت كلها سلسلة من الاهواء كانت فيما مضى مقصورة على طبقة قليلة من الناس . ذلك ان الافراط في حب السلطة والصيت والطمع في الغنى والشرف رشدة الظمأ الى البذخ والشهوات كان في القديم من خصائص الطبقة العالية والطبقة الغنية في الامم فتناول اليوم اهل الطبقة الوسطى حتى أرادت السير على مناحي الطبقة العليا حذو القذة بالقذة . اذا عرفت هذا فقد ثبت لك ان الطموح الى المطالب العالية والذهاب بفضل الشهرة لم يعم قط كما عم في النصف الاخير من القرن التاسع عشر . وقد اهلك هذا المرض الوبيل عدداً من القتلى اكثر مما اهلك من طبقات المجتمع المختلفة في أيامنا . ولئن تولدت الرغبة في الشهرة أحياناً من شعور شريف كريم وحملت المرء ان ينادي بمصلحته بل بحياته الخاصة توقعاً للنجح فهذا الهوى يتبعه العجب أحياناً فيسود صحيفة صاحبه بحيث يبعده عن غايته المقصودة فيحدث أحياناً هيجاناً عصبياً يستحيل الى زيغان في العقل واختلال في المدارك

وهنا سؤال وهو لم كانت هذه الاضطرابات العقلية والأدبية ؟ فالجواب عنها جواب لا يحتمل الريبة والمغالطة ان ذلك ينسب الى ميل أبناء عصرنا فقد افتتن الشبان بابهة الشهرة كأنها الغاية الاصلية في الجهاد الانساني وكأنها غاية السعادة التي ينبغي الطموح اليها . حتى ان الحكومات لتساعد جداً بزيادة نوابغ أبنائها على تنمية العجب وحب الذات في النفوس وتأصلهما

في تلك القلوب الفتية الراغبة في المراتب العالية بما ينهال عليها من المكافآت الفرارة والتشريفات الزائلة وبعد ان تلقي في اذهانهم خيالات غايتها تحسين مستقبلهم تتركهم وشأنهم على حين يدخلون مترك الحياة الحقيقية للشروع في الجهاد . نعم تسلمهم لقوتهم الخاصة عوضاً عن أن تكفل لهم مايستطيعون معه ان يقوموا بواجبات صناعة شريفة .

ثم إن إرتقاء الأفكار الدستورية واشتراك الوطنيين كافة في الحقوق المدنية والسياسية والرغبة في الاشتهار بالمجادلات في دور الندوة قد كان من نتائجها الطبيعية الطمع في الزعامة وحب السلطة بحجة الرغبة في تحسين حال الأمة واتخاذ أسباب السعادة العامة . يشترك في الدعوة الى هذا الأمر جميع طبقات الأمة . وكلما تأصلت الافكار الجمهورية في العادات والقوانين زادت اللهجة بذلك وتوفر القوم عليه .

وهناك شيء آخر وهو أن الرغبة في المناصب والمراتب زادت زيادة خرجت فيها عن طور التعقل وحدود الاعتدال حتى عند من لم تساعدهم ملكاتهم على تحقيق شيء مما ينالونه . وان قلة تميز الحكومات بين مختلف الكفاءآت والملكات في رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات قد دق عنق العدل وقتل روح المباراة وأطفأ نور القرائح قبل انبعاثه فصارت تعبث الشفاعة بالكفاءة الشخصية . فنتج من ذلك ان عدداً عظيماً من الفتيان رأوا بلوغ المراتب ومنازل التشريف غاية عملهم الوحيد فراح بعضهم يطمح فيها للوصول الى الغنى وبعضهم يميل الى الغنى للوصول الى المراتب واتخاذ أسباب التصدر وكان عليهم ان يكون العمل سبب السعادة وغايته العالية .

بيد أن العلم والصناعات كانت عند كثيرين القاعدة التي استندوا اليها

لبلوغ المناصب الاجتماعية السامية وسهلت لهم أسباب الغنى . وقد تولد من الطمع في التمول حب الشهوات والبذخ التي ما برحت تزداد نمواً في الطبقات الاجتماعية عامة كل يوم . وليس معنى البذخ الذي هو مقياس الثروة والغنى أو مظهر من مظاهر الراحة القائم بانفاق مبالغ طائلة لامتلاك مجاميع جميلة من الاعلاق والنفائس أو العاديات المجلوبة من أقطار عديدة بل إن معناه الاشارة الى النجاح والذكاء في كل من يحبون ان يشتهروا بحسن الذوق أو حب الصناعات والفنون . وما أقبح بذخ غايته ان يحدث ضرورة ويستر في مطاويه الشقاء تحت رداء جميل من التمويه أو ان تكون غاية من يجعله ديدنه اغواء الناس ليخرج من ضائقة ويستلفت الانظار الى غناه فيربح من ذلك ما يسد مخمصته وينيله بغيته .

ومن أعظم الاعمال التي قامت في هذا القرن تأليف الشركات فانها انتهت بتأسيس مشاريع عظيمة للانتفاع بموارد غلات الارض وتنمية صناعتها . وهكذا كان من تأليف الشركات المالية وجمعيات الاحسان أعمال وان أسفرت عن معاضدة الثروة العامة فقد قطعت أيدي كثيرين عن العمل وأضعفت من همم الافراد وخربت بيوتاً كانت من قبل عامرة . فان مايعمله الجماعة يستحيل على الفرد القيام به . وقد اكثر اكتشاف ركاز كاليفورنيا وأوستراليا والترنسفال من الذهب في الايدي وكانت التجارة في غنى عنه فنقص سعر الذهب وزادت قيمة المصنوعات والحاجيات مما جعل الانسان في أحرج المواقف من جهاد الحياة . ونتج فقر وغنى من جمع رؤوس أموال عظيمة وتأليف جمعيات صناعية ومالية كبرى بل كان من وراء ذلك فراغ

يتعذر إشغاله تعذر إملاء فنطيس (برميل) الدنائيد (١) اذ بعدت غاية عملنا بقدر امتداد دائرتها وانفصمت عرى الموازنة بين رغائبنا وأسبابنا فبذلت القوى العصبية واجهدت القرائح فوق طاقتها فكان من ذلك أمراض عصبية كثيرة .

التصوير والرسم

ما برح أهل الاختصاص في مدنية الاسلام يعجبون من كونها بلغت عند أهله شأوا بعيداً على حين لم يكن لهم هوى في التصوير والرسم كما لاهل المدنية من الامم الغربية لهذا العهد مثلا فيحكم أولئك الباحثون حكماً اجالياً على مجموع ماقام من تلك المدنية بجزء طفيف اطلعوا عليه منها .

ثم حظر الاسلام رسم الاشخاص مجسمة على حجر او خشب أو نحوه تفادياً من ان يرجع العرب الى عبادة الاصنام والوثنية التي جاء الاسلام للقضاء عليها . أما الرسم الذي يمثل الاجسام الى حد مافهو مباح لاحظر فيه ولا وزر على فاعله . والدليل على ذلك انه كان يرد على الصحابة اقمشة من بلاد الروم وفارس رسمت عليها صور أشخاص وغيرهم فاستعملوها في ألبستهم وفرشهم وأثاثهم وتحاشوا من وضعها في مكان عال فلم يجعلوها ستائر للنوافذ ولم يعلقوها على الجدر مخافة ان يشعر ذلك بتعظيمها .

---

(١) اسم لخمسين بنتاً لدانوس ملك مصر وارغوس من بلاد اليونان حكم عليهن ان يملأن بالماء فنطيساً لاقرار له لانهن قتلن ازواجهن وهذه القصة من اساطير اليونان المأثورة وبها ضرب الكاتب المثل .